الباب الأول
الحليمي في عصره

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
عصر الحليمي

- الحالة السياسية .
- الحالة الثقافية .
- الحالة الاجتماعية .

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً الحالة السياسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة 132هـ حيث بويع لأولهم «أبي عبدالله السفاح» بالكوفة، واستمرت خلافتهم إلى سنة 656هـ حيث سقط «عبدالله المعتصم» قتيلاً بين يدي «هولاكو خان» المغولي من أعقاب «جنكيز خان» موحد التتار.

جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش «بني أمية» وجاءت رايات التتر من المشرق فثلّت عرشهم من بغداد، زهرة المشرق، وجنة الدنيا. فمن المشرق أشرق كوكب سعدهم، ومن الشرق ظهر نجم نحسهم.

استمرت خلافتهم 524 سنة مكثت الدولة 100 سنة كان لخلفائها فيها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي، عدا الأندلس، يقولون فيُسمع لهم، ويأمرون فيأتمر الناس بأمرهم، ولا يجسر أحد على مخالفتهم، والوقوف في وجه جنودهم، إلا منافسوهم في القرب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم بنو عمهم من آل «أبي طالب» وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمع، ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم: «السفاح» و«المنصور» و«المهدي» و«الرشيد» و«الأمين» و«المأمون» و«المعتصم» و«الواثق».

ثم جاء من بعد ذلك قرن آخر من 222 ـ 334هـ أخذت الدولة فيه في النزولِ شيئاً فشيئاً، وضعفت تلك المكانة التي كانت لهم في نفوس الأمم الإسلامية، فاجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال، وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبقَ بيدهم إلا العراق، وفارس والأهواز. وهذه كانت مملوءة بالاضطرابات والفتن.

وآل الأمر إلى أن يتولى «بغداد» مملوك «ديلمي» أو «تركي» يطلق عليه «أمير الأمراء» له النفوذ التام، والسلطان المطلق، والولاية العامة، وليس للخلافة من الأمر شيء.

جاء بعد ذلك دور ثالث من 334 ـ 447هـ ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة، والسلطان الفعلي لأمة فارسية هي الأمة الديلمية التي يمثلها السلطان من «بني بويه» يقيم ببغداد. فصار الخليفة كأنه موظف لهم، يتناول منهم ما يقيم أوده، وليس له تصرف ولا نفوذ، يؤمر فيأتمر، ويفعل ما يراد منه، لا ما يريد، وليس له على نفوس المالكين شيء من السلطان الديني؛ لمباينتهم في العقيدة. فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل «علي» وآل بيته على من عاداهم، وإنما رضوا ببقاء الخليفة من بني العباس ليكون أمره عليهم هيناً يبقونه متى رأوا في بقائه خيراً لهم، ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم[1].

استمرت الخلافة الاسمية لبني العباس، والسلطان الحقيقي لما بقي في أيديهم من البلاد إلى الأتراك، إلى أن تحرك عنصر جديد من الديلم يقوده ثلاثة أخوة، وهم أولاد «بويه»، فانتزعوا السلطان من الأتراك.

والديالمة لم يكونوا من العنصر الفارسي، وإن كانت بلادهم في القديم إحدى الإيالات الفارسية. ولما أذن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه ـ بالانسياح في بلاد الأعاجم، كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون، واستمر الديلم خاضعين للحكم الإسلامي ـ مع بقائهم على وثنيتهم ـ إلى أن دخل بلادهم في أواخر القرن الثالث الهجري «الحسن بن علي» الملقب «بالأطروشي ت 304هـ» وأقام بينهم ثلاثة عشر عاماً يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم منهم خلقٌ كثير[2].

وكانت الأحوال في «بغداد» قد انتهت إلى غاية من السوء والفوضى في عهد «المتقي 329هـ» الذي تولى الخلافة بعد «الراضي» إذ كان مجرد ألعوبة في أيدي القواد المتنافسين على السلطة من جهة وفي أيدي «البريدي» والي «خوزستان» و«ابن رائق» والحمدانيين من جهة ثانية. حتى إذا حاول الدخول في مفاوضات مع إخشيد مصر،

---

(1) انظر في كل ما تقدم الشيخ محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية»، ص 484 ـ 486، الطبعة الأولى، 1970م، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.

(2) الشيخ محمد الخضري، ص 372، مرجع سابق،

اعتقله «توزون» الأمير التركي وسمل عينيه، ولم يكن «المستكفي 333هـ» أحسن منه حالاً، وأكثر سلطاناً، فلما أعجَزَ الأمراءَ المسيطرين عليه إرضاءُ الجند المطالبين بدفع أرزاقهم، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً للقضاء على شبح المجاعة التي كانت تهدد العراق، رأى من الخير أن يرحب «بأحمد بن بويه» منقذاً ومخلصاً[1].

وصل «أحمد بن بويه» بغداد في 11 جمادى الأولى سنة 334هـ فقابله الخليفة، واحتفى به، وبايعه «أحمد» وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة.

وفي هذا اليوم شرف الخليفةُ بني بويه بالألقاب: فلقب «عليا» ـ صاحب بلاد فارس ـ «عماد الدولة» وهو أكبرهم. ولقب «الحسن» ـ صاحب الري والجبل ـ «ركن الدولة». ولقب «أحمد» ـ صاحب العراق ـ «معز الدولة» وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود[2].

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثالث للخلافة العباسية، وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم، وصيرورة الخليفة منهم رئيساً فخرياً، وقد كان الخلفاء يراجعون ويؤخذ رأيهم فيما يفعل. أما اليوم فقد سلب منهم البويهيون كل شيء، ولم يبق للخليفة وزير يتلقى منه التعليمات. وصارت الوزارة «لمعز الدولة» يستوزِرُ من شاء.

وذلك راجع إلى أن الديلم من غلاة الشيعة، يعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة... حتى إن «معز الدولة» استشار جماعة من أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين، والبيعة «للمعز لدين الله» العلوي أو غيره من العلويين، فكلهم أشاروا عليه بذلك، ما عدا بعض خواصه فإنه قال: «ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين

---

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 345، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. الطبعة السابعة، فبراير 1977م. بيروت، دار العلم للملايين. بتصرف.

(2) الشيخ محمد الخضري، ص 378، مرجع سابق.

دمه. ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه، فأعرض عن ذلك»[1].

لذلك لا نعجب لتلك النهاية التي كانت «للمستكفي» فبعد أربعين يوماً من استيلاء «معز الدولة» على بغداد نُميَ إليه أن «المستكفي» يريد التخلص منه، فتنكر له وأجلسه في يوم مشهود للقاء وافدٍ من أصحاب «خراسان» وحضر «معز الدولة» في قومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم بالفتك بالخليفة، فتقدما وتناولا يد الخليفة فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها إليهما فجذباه عن سريره، وجعلا عمامته في عنقه، وقاداه ماشياً إلى دار «معز الدولة» فاعتقل بها، واضطرب الناس، وعظم النهب، ونهبت دار الخلافة، وبايع «معز الدولة» «الفضل بن المقتدر» ولقبه «المطيع لله» وهو ابن عم «المستكفي» يوم 22 جمادى الآخرة[2] 334هـ 946م. ثم جاء من بعده خلفاؤه «الطائع» و«القادر» و «القائم» فما زادوا على أن كانوا مجرد صنائع للبويهيين.

أما البويهيون أنفسهم الذين تسلطوا على الخلفاء واستبدوا بهم، فلم يستطيعوا أن يحتفظوا بسلطانهم إلا بمنازعات دائمة[3].

وذلك راجع إلى عدة عوامل:

1 ـ **نظام الإقطاعات بالعراق:** فما كادت قدم «معز الدولة» تستقر في العراق حتى شغب عليه الجند مطالبين بأرزاقهم، فاضطر إلى الضغط على عامة الناس، وأخذ الأموال من غير وجوهها، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التي للسلطان وأصحاب الأملاك. فبطل لذلك أكثر الدواوين، وتحول العراق إلى خرابة بعد أن كان جنة الدنيا[4].

---

(1) علي بن أبي الكرم بن الأثير، الكامل في التاريخ جـ6، ص 315، الطبعة الثانية 1967. دار الكتاب العربي. بيروت.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القسم الأول، المجلد الرابع، ص 928، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1968م بتصرف.

(3) كارل بروكلمان، ص 246، مرجع سابق بتصرف.

(4) على بن أبي الكرم، ابن الأثير، جـ6، ص 217، مرجع سابق.

2 ـ **الانقسام العرقي بين الجنود**: فلقد كان جند «معز الدولة» من الديلم . ـ أهله وذووه ـ والأتراك، وبين العنصرين غيرة ومنافسات، فكان بينهما في أكثر الأحيان منازعات شديدة كادت أن تؤدي في سنة 335هـ إلى خلع «معز الدولة» بيد الديلم أنفسهم، لما رأوا من تقدم الأتراك عليهم، ولكن «معز الدولة» انتصر عليهم بقوة الأتراك، ومن ثم اصطنعهم لنفسه، وأمر بتوبيخ الديلم، والاستطالة عليهم، ثم أطلق للأتراك إطلاقات زائدة على «واسط» و«البصرة» فأخربوا البلاد، ونهبوا الأموال، وصار ضررهم أكثر من نفعهم[1].

3 ـ **الاختلاف المذهبي**: كان أهل «بغداد» قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة، يحترمون جميع الصحابة، ويرون أن التفضيل بينهم مرتب وفق ترتيب الخلافة، ولا يقدحون في «معاوية» ولا في غيره من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما جاء البويهيون وقد اعتنقوا الإسلام على مذهب الشيعة، نما هذا المذهب «ببغداد» ووجد له من قوة السلطان أنصاراً. ففي سنة 352هـ أمر «معز الدولة» عاشر المحرم التجار أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق، والبيع والشراء، وأن تخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على مقتل «الحسين بن علي» رضي الله عنه ـ ولم يكن لأهل السنة قدرة على المنع، لكثرة الشيعة، وتأييد السلطان لهم. وبهذا الانقسام صارت «بغداد» وبلاد فارس، والري ميداناً للاضطرابات المتكررة[2].

4 ـ **الاختلافات والصراعات الخارجية**: ففي شمال البلاد وجنوبها خصوم للبويهيين يتحينون الفرص للقضاء عليهم، والاستيلاء على ما تحت أيديهم من البلاد والعباد. فكان «ناصر الدولة» في الشمال يعد العدة للاستيلاء على «بغداد» عاصمة الخلافة، وقد تم له ذلك بالفعل في أول سنة من ولاية «معز الدولة» فاستولى على

---

(1) الشيخ محمد الخضري، ص 381 ـ 382، مرجع سابق.

(2) الشيخ محمد الخضري، ص 382 بتصرف، مرجع سابق.

الجانب الشرقي من «بغداد». وكاد أمر معز الدولة أن يضمحل لولا لجوؤه إلى الحيلة التي خدع بها «ناصر الدولة». . وظل الصراع بين الطرفين في مد وجزر إلى أن تم الصلح بينهما بواسطة «سيف الدولة» في مستهل عام 348هـ.

وفي الجنوب كان «أبو القاسم البريدي» أميراً على «البصرة» باسم «معز الدولة» ولكن نفسه كان تطمح للاستقلال بها، والاستيلاء على خراجها. فكان «معز الدولة» يرسل إليه الجنود و«البريدي» يرسل مثلها، إلى أن عزم «معز الدولة» في عام 336 أن يسير إليه بنفسه. . . ولما قارب «البصرة» استأمنه كثير من عسكر «البريدي» وهرب «البريدي» إلى «هجر» والتجأ إلى القرامطة[1].

5 ـ **انقسام بني بويه على أنفسهم**: ما لبثت ذرية هؤلاء الإخوة الثلاثة الذين أنشأوا الدولة البويهية، في ظل رابطة أسرية قوية من أهم صفاتها التعاون الوثيق، والطاعة التامة لكبير العائلة. . . ولقد امتاز «علي بن بويه» والذي لقب فيما بعد «بعماد الدولة» بصفات عظيمة قلما تتوفر في أمثاله من الرجال. وإليه يرجع الفضل فيما بلغه «بنو بويه» من قوة وعزة.

ومن أمثلة طاعتهم والتزامهم النظام: أن «معز الدولة» ـ وهو أصغر الإخوة الثلاثة ـ لما لقي أخاه «عماد الدولة» «بأرّجان» عام 363هـ قبّل الأرض بين يديه، وكان يقف قائماً عنده، فيأمره بالجلوس فلا يفعل، ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الرئاسة إلى أخيه الثاني «ركن الدولة» في «الري» فكان «معز الدولة» لا يخالف له أمراً[2].

ما لبثت هذه الذرية أن تنازعت فيما بينها على الإرث، وحل الشقاق والعصيان محل الوفاق والطاعة، فانحلت تلك الرابطة القوية وانفصمت عراها بين أبناء العمومة، وبين الإخوة أنفسهم أحياناً.

---

(1) ابن خلدون، القسم الأول، جـ4، ص 931، مرجع سابق.

(2) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده. جـ 1، ص 55، الطبعة الرابعة 1387هـ، 1967م، القاهرة، مكتبة الخانجي، بيروت، دار الكتاب العربي.

فما إن توفي «ركن الدولة» عام 366هـ حتى تجهز ابنه «عضد الدولة» - الذي استولى على ملك أبيه بعهد منه - إلى «بغداد» وكانت نفسه تتوق إليها، لولا وقوف أبيه في وجهه، ومنعه من إحداث الفرقة، وابتداع الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة.

طلب «عضد الدولة» من «بختيار بن أحمد بن بويه» أن يسير عن «العراق» إلى أي جهة شاء. وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح، فأجاب «بختيار» إلى ذلك. ودخل «عضد الدولة» «بغداد» عام 367هـ، واستقر ملكه بالعراق، وما معها من ملك أبيه، ثم سار نحو الموصل فملكها. وأخذ ينتزع من إخوته وأبناء عمومته جميع ما كان في حوزتهم من البلاد، ليضم فارس إلى العراق في ظل دولة موحدة، ولكن هذه الدولة ما لبثت أن انحلت بعد وفاة «عضد الدولة» سنة 372 هـ بسبب المنازعات التي نشبت بين أبنائه[1].

وبصورة عامة، فإن «البويهيين» قد خيبوا آمال كثيرين كانوا يظنون آنذاك أن سيطرة «البويهيين» سوف تعيد الاستقرار إلى أقاليم الخلافة الإسلامية، تعيد لها مهابتها في قلوب أعدائها المتربصين بها، إلا أن ذلك ظل حلماً لم يتحقق. فقد استمرت الحروب والغارات بين تلك الأقاليم فيما بينها، واضطرمت الفتن الداخلية بسبب سياسة «البويهيين» كما اشتدت غزوات الروم على حدود البلاد الإسلامية مستغلين ضعف الخلافة، وانقسام الأمراء والقواد على أنفسهم. هذا بالإضافة إلى الخلاف المتواصل بين فروع دولة «بني بويه» وما ابتدعوه من خلع الخلفاء، وقتلهم، والتمثيل بهم، الأمر الذي أدى إلى ضعف الدولة ونزع مهابتها من قلوب الناس.

ولقد عاصر «الحليمي» دولة «بني بويه» غير أنه كان في منأى عن حكم «البويهيين» إذ ولد في «جرجان» 338هـ ونما وترعرع في «بخارى» التي كانت في ذلك

---

(1) انظر: بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 246، والخضري، تاريخ الأمم الإسلامية، ص 395 وما بعدها. وابن خلدون: العبر، القسم الأول، جـ 4، ص 965 وما بعدها.

الوقت عاصمة «للسامانيين» الذين حكموا تلك البلاد أكثر من مائة عام. وهي أسرة فارسية تنتسب إلى رجل يدعى «سامنخداه»[1] وكان يحكم «بلخ» قبل دخوله في الإسلام.

وقد اتصل «بأسد بن عبدالله القسري» الذي كان والياً للعباسيين على «خراسان» بعد تمرد قام به خصومه، وطلب معونة «أسد» الذي لم يتردد في إعادة «سامان» إلى بلده، ومساعدته في القضاء على أعدائه. وقد اعتنق «سامان» الإسلام، وسمى أول مولود له «أسداً» ـ تيمناً «بأسد القسري» ـ وهو الذي انحدرت منه «الأسرة السامانية» التي حكمت مناطق شاسعة في ظل الخلافة العباسية.

وقد اتصلت هذه الأسرة ببلاد ما وراء النهر، بناء على أمر من الخليفة «المأمون ابن هارون الرشيد» 198 ـ 218هـ، أصدره إلى واليه على «خراسان» بتوليه أبناء «أسد ابن سامان» مناصب في الدولة. ولذلك ظل «السامانيون» على ولائهم للعباسيين، حتى بعد أن استقل أحفاد «أسد» بالإمارة في تلك البقاع، فقد كانوا يستمدون الشرعية في حكم تلك البلاد من الخلفاء العباسيين شخصياً.

ويعتبر «إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان» 279 ـ 295هـ أول أمير من هذا البيت[2]، وهذا ثبت بأمراء هذه الأسرة:

1 ـ إسماعيل بن أحمد	279هـ 892م ـ 295هـ 907م
2 ـ أحمد بن إسماعيل	295هـ 907م ـ 301هـ 913م
3 ـ نصر بن أحمد	301هـ 913م ـ 331هـ 943م
4 ـ نوح الأول بن نصر	331هـ 943م ـ 343هـ 954م

---

(1) سامان: اسم قرية من أعمال بلخ، و«خداه»: كلمة فارسية معناها «الله» أو رئيس. كرئيس الدولة والأسرة والقرية، انظر: دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد الحادي عشر، ص 76، الطبعة الثالثة.

(2) نقلاً عن «دائرة المعارف الإسلامية»، المجلد الحادي عشر، ص 79، المرجع السابق.

5 ـ عبد الملك الأول بن نوح 343هـ 954م ـ 350هـ 961م

6 ـ منصور الأول بن نوح 350هـ 961م ـ 365هـ 976م

7 ـ نوح الثاني بن منصور 365هـ 976م ـ 387هـ 997م

8 ـ منصور الثاني بن نوح 387هـ 997م ـ 389هـ 999م

9 ـ عبد الملك الثاني بن نوح 389هـ ـ 999م

وقد اتصل «الحليمي» بالسامانيين اتصالاً وثيقاً، فإلى جانب توليه القضاء في «بخارى» وغيرها، أسندت إليه مهمة السفارة إلى «نيسابور» سنة 385هـ من قبل «نوح الثاني بن منصور» الذي حكم البلاد إحدى وعشرين سنة، وانتقض بموتِهِ ملك «بني سامان» وصار إلى الانحلال[1].

كما ورد جرجان رسولاً من أمير «خراسان» إلى «قابوس بن وشكمير» عام 389هـ في مهمة إنسانية[2].

وقد أثنى كثير من المؤرخين على «السامانيين» الذين حكموا بلاد «ما وراء النهر» و«كرمان» و«إيران» كلها، مما اضطرهم إلى إنشاء منصب ـ نظراً لسعة سلطانهم ـ يشبه إلى حد ما، ما يعرف ـ في عصرنا الحاضر ـ بنائب الرئيس، فكانوا يقيمون «ببخارى» في حين أن صاحب جيشهم كان يقيم «بنيسابور». يقول «ابن خلدون»: كانت دولة «بني سامان» من أعظم الدول وأحسنها سياسة[3].

وقد امتدح «المقدسي»[4] سيرتهم في الحكم، فيقول: إنهم من أحسن الملوك سيرة، ونظراً وإجلالاً للعلم وأهله، فقد كان من رسومهم ـ مثلاً ـ أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم.

---

(1) ابن خلدون، العبر، القسم الأول، المجلد الرابع، ص 765، مرجع سابق.

(2) أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، الأنساب، جـ4، ص 199، تحقيق: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني. الطبعة الثانية 1980م، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت.

(3) العبر القسم الأول، المجلد الرابع، ص 796، مرجع سابق.

(4) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شمس الدين المقدسي، ص 337 ـ 339. مطبعة ليدن. 1906م.

ويقول أيضاً: إن في أمثال الناس «لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست» ويقول: ألا ترى إلى «عضد الدولة» وتجبره وتمكنه، وكمال دولته، وقوة أمره، فقد فتحت له البلاد طوعاً، وملك ما ملك. فلما تعرض لآل «سامان» وطلب «خراسان» أهلكه الله، وشتت جمعه، وفرق جيوشه، ومكن أعداءه من ممالكه، فتباً لمن عاند آل «سامان».

ولعل هذا الإطراء من جانب «المقدسي» كان لأسباب شخصية، فالحقيقة أن الديلم أخذوا من السامانيين «إيران» كلها، وإن كان ذلك لم يتم لهم إلا بعد نضال طويل، حتى كان «سبكتكين» قائد «معز الدولة» «ببغداد» يضطر إلى الإسراع «للري» في كل عام تقريباً لمعاونة أخي «معز الدولة» في محاربته «للسامانيين»[1].

وقد أثنى «ابن حوقل»[2] على «السامانيين» وعلى حسن إدارتهم المالية، وضبطهم للأعمال في شمال المملكة الإسلامية وفي شرقها، يقول: وليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً، ولا أوفر عدة، ولا أكمل عُدة، ولا أنظم أسباباً، ولا أدوم حسن نيات منهم، مع قلة جبَاياتهم، ونذور أخرجتهم، وقلة الأموال في خزائنهم. وذلك أن جباية «خراسان» و«ما وراء النهر» لـ «أبي صالح منصور بن نوح» في وقتنا هذا.

وقد بلغت هذه الأسرة غاية مجدها في عهد «نصر بن أحمد» الذي تولى الإمارة بعد مقتل أبيه على يد أحد غلمانه، وكان ابن ثماني سنين، ولقب بالأمير السعيد، وتولى الأمور له أصحاب أبيه، ببخارى.

كما كانت أراضي ما وراء النهر المنخفضة، ومياهها الغزيرة تستغل استغلالاً جيداً، وتدر محاصيل وافرة، بفضل العناية المنظمة الحاذقة، وتشجيع «السامانيين» وعدلهم بين الرعية[3]. الأمر الذي جعل تلك البلاد في مطلع القرن العاشر الميلادي،

---

(1) الحضارة الإسلامية، المرجع السابق، الجزء والصفحة نفساهما.

(2) المسالك والممالك ص 308، نقلاً عن تاريخ الحضارة الإسلامية، آدم متز، جـ 1، ص 241.

(3) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 263، بتصرف.

تحتل مكانة مرموقة، وتقوم فيها نهضة شملت جميع مناحي الحياة، لتصبح مركزاً لحضارة زاهرة.

غير أن «السامانيين» انتهوا إلى ما انتهى إليه العباسيون من الاعتماد على الأتراك في إمداد جيوشهم بالعناصر الجديدة، بل لقد ذهب «السامانيون» إلى أبعد من ذلك بسبب ما كان في حوزتهم من البقاع الآهلة بالأتراك. فلم تمضِ مدة حتى نفذ الأتراك تدريجياً إلى الرتب العليا في الجيش «الساماني» ومن ثم انتقلوا إلى الإدارة المدنية، حيث أمسوا بعد برهة وجيزة خطراً على الدولة الفتية، للسلطات الواسعة التي آلت إليهم.

وكان «عبد الملك الأول» 343 ـ 350هـ قد عين المملوك التركي «ألبتكين» قائداً عاماً في «خراسان» ابتغاء إقصائه عن العاصمة في الدرجة الأولى بعد أن تعاظم فيها سلطانه، ولكنه ما لبث ـ بعد وفاة «عبد الملك» ـ أن حاول الاستيلاء على «غزنة»، والذي كان أبوه حاكماً عليها من قبل. بيد أن المنية عاجلت «ألبتكين» قبل أن يمسي خطراً على «السامانيين» ولكن مملوكه «سبكتكين» الذي صار صهره فيما بعد، لم يلبث أن حل محل صهره في تحقيق ما حالت المنية دونَ تحقيقه[1].

---

(1) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ص 266، مرجع سابق.

ثانياً: الحالة الثقافية:

إذا كانت السمة الغالبة على القرن الرابع الهجري ـ من الناحية السياسية ـ هي الاضطراب والفوضى، والانقسام الداخلي بين الأقاليم الإسلامية، فإن الحياة الثقافية لم تتأثر بهذا الانقسام، فلم يضعف العلم بضعف السياسة، ولم يأفل نجم العلماء كما أفل نجم السياسيين. بل إن التنافس بين الأمراء والوزراء كان السمة الغالبة على ذلك العصر، فقد حرص كل واحد منهم على أن يكون في بلاطه عدد من العلماء والمفكرين في شتى مناحي المعرفة والعلوم. وإذا استطاع أحد هؤلاء أن يجذب إلى قصره أديباً مشهوراً أو شاعراً معروفاً، فإن ذلك يعد من دواعي الفخر الشديد الذي لا يعادله فخر، «وكانوا يتباهون بأن يقال: إن العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني»[1]. ومن هنا يمكن أن يطلق على هذه الفترة بأنها العصر الذهبي للعلوم الإسلامية.

وإذا كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2].

فلا غرابة أن نرى ثمار المعرفة قد أينعت في هذا العصر نتيجة الجهود التي بذلها العلماء من لدن الصحابة.

وإذا كانت العلوم في القرنين الأول والثاني نقلية تهدف إلى المحافظة على الدين الجديد، وتحيطه بسور يمنع أي دخيل أو حاقد من أن يسيء إليه، فإن القرنين الثالث والرابع وما بعدهما أصبحت العلوم فيهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب. ومن الطبيعي أن يتجه المسلمون ـ بعد أن استوعبوا تراثهم وفكرهم ـ إلى الفكر العالمي، فأقبلوا على ترجمة ما وصل إليه الفكر الإنساني عند أصحاب المدنيات

---

(1) جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي. جـ 3، ص 172. مطبعة الهلال بالفجالة، 1904م القاهرة.

(2) الآية 1 من سورة العلق.

القديمة من آشوريين، وبابليين، ومصريين، وفرس... بكل قوة، رغبة منهم في بناء حضارة لكل الإنسانية. «ويلاحظ أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم في قرن وبعض قرن، ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون، وذلك شأن المسلمين في أكثر أسباب تمدنهم العجيب»[1].

ولم تكد العلوم الدخيلة تنقل إلى العربية، حتى أقبل عليها المسلمون بالشرح والتعليق والتلخيص، حتى إذا نضجت أفكارهم، وتمكنوا من تلك العلوم، مزجوها بما عندهم من آراء وتجارب، واستخرجوا منها علوماً كانت الأساس في بناء تلك الحضارة التي ظلت أكثر من أربعة قرون دون منافس، فضلاً عن أنها الأساس في قيام الحضارة الإنسانية إلى يومنا هذا.

وكان تشجيع الخلفاء والأمراء والموسرين عاملاً مهماً في سرعة نضج العلوم في العصر العباسي، وكثرة ما ترجم في تلك الحقبة القصيرة «فقد كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب وترجمتها، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والإكرام والمحاسنة بقطع النظر عن مللهم ونحلهم، فقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابئ والسامري والمجوسي. فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والإكرام، مما يصح أن يكون مثالاً للاعتدال والحرية، وقدوة لولاة الأمور في كل العصور»[2].

وكان أول من بدأ بنقل علوم الأوائل «خالد بن يزيد. ت 85هـ» فقد حيل بينه وبين الخلافة، وكانت نفسه تتوق إليها، فلما يئس منها «وهو ذو مطامع وذكاء، انصرف ذهنه إلى اكتساب العلى بالعلم، وكانت صناعة «الكيمياء» رائجة في مدرسة «الإسكندرية» فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه «مريانوس» طلب إليه أن يعلمه صناعة الكيماء، فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية... وهذا أول نقل في

---

(1) جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ3، ص 162، مرجع سابق.

(2) جورجي زيدان، جـ3، ص 163، المرجع السابق.

الإسلام من لغة إلى لغة»[1]. بيد أن الترجمة على مستوى الخلافة لم تبدأ إلا بعد أن آلت الخلافة لبني العباس. فما إن أرسوا دعائم دولتهم حتى اشتاقت أنفسهم إلى الاطلاع على علوم السابقين، ولكنهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة، وإنما تم ذلك بحسب الحاجة والتدرج تبعاً لمقتضيات الأحوال.

وإذا كان «السفاح» لم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه (132 ـ 136هـ) وانشغاله بأمور الدولة الفتية، فإن «المنصور، 136 ـ 158» هو أول من عنى ـ من الخلفاء ـ بنقل كتب الأوائل، إلا أنه اقتصر منها على الطب والهندسة والنجوم. وفي عهده ترجم «عبدالله بن المقفع» «كليلة ودمنة»[2].

ثم جاء «المهدي» إلى الخلافة (158 ـ 169هـ)، وكان شغله الشاغل محاربة الزندقة والقضاء عليها لما تحمله من تهديد للخلافة العباسية، والتي كانت بسبب انتشار كتب «ماني» و«مرقيون» وغيرهما مما نقله «ابن المقفع» وغيره... وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية، فكثر الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس، فأمر «المهدي» بإنشاء ديوان عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة» ومهمته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم، كما ألف هيئة علمية أنيط بها مهمة مناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم[3]، أما «الهادي» فلم تطل حياته (169 ـ 170هـ) فلما أفضت الخلافة إلى «هارون الرشيد» (170 ـ 193هـ) كانت الأفكار قد نضجت، والأذهان قد زادت تنبهاً إلى علوم الأقدمين، بما كان يتقاطر على «بغداد» من الأطباء والعلماء، السريان، والفرس، والهنود... وكانوا يتعلمون العربية، ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم... وكانوا ـ من الجهة الثانية ـ يخدمون الخلفاء ـ خاصة الأطباء منهم ـ فأدى ذلك إلى ائتلاف الخلفاء وشغفهم بمعرفة تلك العلوم، فكانوا إذا

---

(1) جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ3، ص 136، مرجع سابق. وانظر أيضاً «وفيات الأعيان» لابن خلكان، جـ2، ص 224، دار صادر بيروت.

(2) جورجي زيدان، جـ3، ص 139، المرجع السابق.

(3) الدكتور / إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ2، ص 116. الطبعة الأولى 1967م، ملتزم الطبع والنشر: مكتبة النهضة المصرية، بالقاهرة.

فتحوا بلداً، ووجدوا فيه كتباً، فإنهم لا يأمرون بحرقها وإتلافها، بل بالمحافظة عليها، كما حدث أيام «الرشيد» عند فتحه «أنقرة» و«عمورية» وغيرهما من بلاد الروم، فقد عثر هناك على كتب كثيرة حملها إلى «بغداد» وأمر طبيبه «يوحنا بن ماسويه» بترجمتها[1].

وفي عصر المأمون (198 ـ 218هـ) قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصة من اليونانية والفارسية، إلى العربية، فأرسل البعوث إلى «القسطنطينية» لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب. . . ويروي «ابن النديم» في الفهرست: أن «المأمون» كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه «المأمون» فكتب إليه يسأله في إنقاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج «المأمون» لذلك جماعة منهم «الحجاج بن مطر» و«ابن البطريق» و«سلما» صاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل»[2].

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على «المأمون» بل عني بذلك جماعة من كبراء «بغداد» فاقتدوا بالخلفاء، واستخدموا التراجمة، وبذلوا الأموال في سبيل نقل كثير من الكتب إلى العربية، وأشهر هؤلاء «أحمد، ومحمد، والحسن» أبناء «موسى ابن شاكر» المنجم، الذين بذلوا الأموال الضخمة في سبيل الحصول على كتب الرياضيات، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أحضر لهم الكتب في مختلف العلوم القديمة، واستقدموا النقلة من مختلف الأصقاع والأماكن، وقد أوفدوا «حنين بن إسحاق» إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[3].

---

(1) موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص 246، شرح وتعليق الدكتور نزار رضا. منشورات: دار مكتبة الحياة. بيروت، 1965م.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص 233، مكتبة خياط، بيروت.

(3) ابن النديم، الفهرست، ص 233، المرجع السابق.

وكانت «بغداد» كعبة العلم، وقبلة العلماء، ومنبت أهل الفضل، ومقر نقلة العلم، أثناء النهضة العباسية، خصوصاً أيام «المأمون، والمعتصم، والواثق» ولقد شهدت هذه الفترة انتصاراً لتيار أهل السنة الذي بدأ على يد «المتوكل» (234 ـ 247) هـ. الذي أحيى تعاليم أهل السنة، وتكلم بها في مجالسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة التي أثارها «المعتزلة» والخاصة بمشكلة «خلق القرآن» وجعلها عقيدة رسمية للدولة، ومحاولتهم فرضها بالقوة. فلما قتل «المتوكل» على أيدي الأتراك، اضطربت أحوال الخلافة الإسلامية وأصبحت السلطة في يد الأتراك. فهم الذين يتولون تعيين الخلفاء وعزلهم.

وكان «المعتصم (218 ـ 227)هـ» أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك، وأسندوا إليهم المناصب العليا في الدولة، وأقطعوهم الولايات الإسلامية. . وقد أدرك «المعتصم» خطر هؤلاء الأتراك، الذين آذوا أهل «بغداد» ففكر في نقلهم إلى «سامراء» التي اتخذها قاعدة لخلافته. وبلغ من ازدياد نفوذ الأتراك، أن حقد عليهم العرب والفرس، وكان معظم العلماء في ذلك الوقت منهم، فأدى التنافس بينهم وبين الأتراك إلى نفرة طلبة العلم من «بغداد» وتفرقوا في أنحاء الخلافة الإسلامية شرقاً وغرباً، لذلك كان كثير ممن نبغ في العلم في القرن الرابع الهجري فما بعده من خارج بغداد[1].

هذا فضلاً عن تشجيع الأمراء والوزراء أصحاب تلك المناطق التي استقلت عن الخلافة الإسلامية في «بغداد» لكثير من العلماء من أصحاب التخصصات المختلفة، فقد كانت قوة الدولة في تلك العصور لا تقاس بكثرة الجند والسلاح فحسب ولكنها أيضاً ينظر إلى ما فيها من علم وفن وأدب، لذلك عمل الأمراء الذين استقلوا بولاياتهم، على تقريب الأدباء والعلماء والمفكرين والفلاسفة، وتنافسوا في اجتذابهم، ليزدان بهم البلاط، ويفخر بهم الأمراء. وكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية، فقد نبغ أعلام في مختلف فروع الثقافة والعلم، وأدرك

---

(1) الدكتور/ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، جـ3، ص 2 وما بعدها.

الناس قيمة العلم في بناء الأمم والشعوب ونهضتها، فانكبوا على دراسة العلوم قاطبة، وعهد أهل اليسار إلى المؤدبين بتعليم أبنائهم، وأصبح التعليم صناعة، وصار التأديب طريقاً إلى المجد، فتعددت مراكز العلم في هذا العصر، وكان للعلوم المترجمة أثرها الواضح ـ خاصة فلسفة اليونان ـ في تفكير بعض المسلمين، وتعددت مناهج التفكير والبحث، فاختلفت باختلاف الثقافات، التي كانت نتيجة طبيعية لشمول الحكم الإسلامي لأمم وشعوب ذات ثقافات متعددة، «ولكن الثقافة الإسلامية ـ بمختلف فروعها من تفسير وحديث ولغة وأدب... كانت هي الأساس في التكوين العقلي للمتعلمين لارتباطها بحياة المسلمين»[1]. فقد كان للدين ـ في ذلك العصر ـ أكبر الأثر في نفوس الناس، الذين كانوا يتوخون في كل ما يصدر عنهم من أفعال وأقوال، أن تكون مطابقة لتعاليم دينهم متسقة معها.

وفي بلاط الأمويين بالأندلس، كانت «قرطبة» سوقاً رائجاً للعلم، وكعبة لرجال الأدب، وجذبت مساجدها أنظار الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله الأصيلة. وقد ظهرت فيها طائفة من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء والمتكلمين..... وقد زخرت مكتبة «قرطبة» بكثير من المصنفات في مختلف العلوم والفنون خاصة في ظل حكم «المستنصر» الذي تولى الخلافة عام 350هـ. فقد بذل جهوداً جبارة لإنشاء مكتبة عامرة في قصره «بقرطبة» وكانت له شبكة قوية من السماسرة منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي مهمتها شراء كل كتاب قيم لحساب هذه المكتبة التي كانت تضم بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد. ولم يكن اقتناء الكتب في الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء وإنما تعداهم إلى الوجهاء والأشراف، وعد ذلك العمل مظهراً من مظاهر المباهاة والافتخار[2].

فإذا انتقلنا إلى البيئة التي عاش فيها «الحليمي» نرى أنها تميزت إلى جانب الاستقرار السياسي، بنهضة علمية نافست «بخارى» فيها «بغداد». فلقد قدَّم

---

(1) انظر: أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل. عبد الله التركي، ص 20 وما بعدها.

(2) انظر: تاريخ الإسلام السياسي، الدكتور/ حسن إبراهيم، جـ 3، ص 338.

«السامانيون» أجلّ الخدمات للعلوم الإسلامية واللغة العربية خاصة والعلم بصورة عامة.

ويصف «المقدسي»[1] بلاد ما وراء النهر، وحكامها فيقول: «إنه أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء، وهو معدن الخير، ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم، وملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك».

وكان العلماء يفدون على «بخارى» ويؤلفون الكتب ويدفعونها إلى ملوك «السامانيين» الذين كانوا يكافئون أصحابها مكافأة مجزية، تتناسب وقيمة الكتاب. بل ربما عاقبوا كل من حاول غشهم أو الكذب عليهم.

ويذكر «ابن جلجل»[2] في «تاريخ الأطباء» أن «أبا بكر محمد بن زكريا الرازي» الطبيب المشهور، صنف «لمنصور بن إسحاق بن أحمد الساماني» كتاباً في صناعة الكيمياء وقصده به من «بغداد» فدفع له الكتاب، فأعجبه وشكره عليه، وحباه بألف دينار. وقال له: أريد أن تخرج هذا الذي ذكرت في هذا الكتاب إلى الفعل، فقال له «الرازي»: إن ذلك مما يتمون له المؤن، ويحتاج إلى آلات وعقاقير صحيحة، وإلى إحكام صنعة ذلك كله، وكل ذلك كلفة، فقال له «منصور» كل ما احتجت إليه من الآلات، ومما يليق بالصناعة أحضره لك كاملاً حتى يخرج ما ضمنته كتابك إلى العمل. فلما حقق عليه، كعّ عن مباشرة ذلك، وعجز عن عمله. فقال له «منصور»: ما اعتقدت أن حكيماً يرضى بتحليل الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة، يشغل بها قلوب الناس، ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة، ثم قال له: قد كافأناك على قصدك وتعبك بما صار إليك من الألف دينار، ولابد من معاقبتك على تخليد الكذب. فحمل السوط على رأسه، ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع.

---

(1) أحسن التقاسيم، ص 294.

(2) نقلاً عن وفيات الأعيان، لابن خلكان، جـ5، ص 165، مرجع سابق.

وقد ارتقت «بخارى» في عهد «إسماعيل الساماني» حتى أصبحت من أهم الحواضر الإسلامية. وقد وصف «ابن الأثير»[1] «إسماعيل الساماني» فقال: إنه كان خيّراً يحب أهل العلم والدين ويكرمهم».

وفي عهد «نوح بن نصر الساماني»[2] 331 ـ 343هـ قدم إليه الشيخ الرئيس «أبو علي الحسين بن سينا» ت 428هـ. لعلاجه من مرض ألم به. فلما شفي على يديه قربه منه، وأذن له بالدخول إلى دار كتبه، وكانت عديمة المثل ـ كما يقول «ابن خلكان»[3]: فيها من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها، مما لا يوجد في سواها، ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته. فظفر «أبو علي» فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها، وحصل نخب فوائدها، واطلع على علومها، واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة، فتفرد «أبو علي» بما حصّله من علومها. ويقال: إن «ابن سينا» توصل إلى إحراقها، لينفرد بمعرفة ما حصله منها، وينسبه إلى نفسه.

إن الحديث عن النهضة العلمية في تلك الحقبة من الزمن ـ ومحاولة استقرائها وتتبعها في حواضر العالم الإسلامي يحتاج إلى بحث بل إلى أبحاث متخصصة ومطولة ليس هنا مجالها «وبالجملة فإن بذور العلم التي ألقاها خلفاء النهضة العباسية في «بغداد» ظهرت ثمارها في «خراسان» و«الري» و«خوزستان» و«أذربيجان» و«ما وراء النهر» وفي «مصر» و«الشام» و«الأندلس» وغيرها. وظلت «بغداد» مع ذلك رافلة بالعلماء بقوة الاستمرار، بما فيها من أسباب الثروة، ولأنها مركز الخلافة»[4].

---

(1) الكامل، جـ6، ص 118، مرجع سابق.

(2) وصفه ابن الأثير بقوله: كان حسن السيرة كامل الأخلاق، وكان يلقب: بالأمير الحميد. الكامل. جـ6، ص 346، مرجع سابق.

(3) وفيات الأعيان، جـ1، ص 420، مرجع سابق.

(4) جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ3، ص 168 ـ 169، مرجع سابق.

ثالثاً: الحالة الاجتماعية:

بعد أن عرضت الحالة السياسية والثقافية في عصر «الحليمي» لابد أن أشير إلى الأحوال الاجتماعية السائدة في المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن:

كان هذا المجتمع يموج بعناصر مختلفة جمعها المكان: فكان فيهم العرب الخلص، وهم الذين كان لثقافتهم ولغتهم السلطان الكامل. الأمر الذي جعل تلك الأماكن تتميز بطابع فكري وأدبي ينطلق من تلك اللغة السامية، لغة القرآن الكريم، والتي أصبحت - دون منافس - لغة الأدب والفكر والعلم.

وكان فيهم الفرس، خاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية، وقد قويت شوكتهم أيام «المأمون» لأن أمه كانت خراسانية، وكان فيهم الأتراك أخوال «المعتصم» الذي اتخذ منهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية، وأهمل العرب والفرس. وقد أصبح هؤلاء الأتراك فيما بعد خطراً على حياة الخلفاء الذين اضطروا إلى الاستعانة بالجنسيات الأخرى - لوقف تسلط الأتراك - من النبط والأرمن والجركس والأكراد والبربر...

وقد ذكر «ابن الجوزي»[1] أن عامة «بغداد» كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر. ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم لانصهارهم في بوتقة الشعب العربي، وسيادة اللغة العربية التي هي اللغة الأصلية للوطن العباسي.

وهذا المزيج من الشعوب والأمم كانت نتيجة طبيعية لانتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، فقد دخلت كثير من شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، وامتزج العرب بأجناس مختلفة، وأمم متنوعة تتباين في لغاتها وعاداتها وتقاليدها، وثقافتها

---

(1) المنتظم، جـ9، ص 228، نقلاً عن: تاريخ الإسلام، للدكتور/ حسن إبراهيم، جـ4، ص 625، مرجع سابق.

أيضاً، وقد لاحظنا عند الحديث عن «الحالة الثقافية» كيف استطاع المسلمون الاستفادة من تلك الثقافات المتعددة. وصهرها في بوتقة واحدة، بعد إزالة ما علق بها من شوائب وخرافات، ليضعوها بين يدي الأجيال القادمة باعتبارها لبنة في بناء صرح الحضارة الإنسانية، وحلقة وصل بين الحضارة القديمة وما يتطلع إليه الإنسان في مستقبل حياته. ولكن نتائج الاختلاط الاجتماعي بين العرب وغيرهم قد ترتب عليه بعض السلبيات. فقد جر على العرب ألواناً من الترف في حياتهم: من طعام ولباس ومسكن، وتغالى الخلفاء والأمراء والموسورون في تشييد القصور، وزينوها بالأثاث، واقتنوا من الجواهر والأحجار الكريمة، ومظاهر الأبهة ما لا يكاد يتصوره العقل أو يصل إليه الخيال، وانغمسوا في الشهوات والملذات. الأمر الذي جعلهم يتهافتون على حب المال وجمعه بطريق مشروع أو غير مشروع للوفاء بضريبة الشهوات والملذات[1].

وإذا كانت هذه الآثار السلبية لم تتضح في الدولة الأموية تماماً بسبب احتفاظها بكثيرٍ من العادات العربية، فإن الدولة العباسية التي قامت على أكتاف الفرس، قد تأثرت إلى حد كثير بالتقاليد الفارسية وابتعدت عن التقاليد العربية الموروثة: فأقبل الخلفاء على الزواج من غير العربيات، يدفعهم إلى ذلك فرط جمالهن، ووفرة العقل وحدة الذكاء في نسلهن. لذلك كان أغلب خلفاء بني العباس من أبناء السراري: «فالهادي» وأخوه «الرشيد» أمهما رومية، و«المأمون» أمه فارسية و«المعتصم» و«المتوكل» أمهما تركية.

وكان هذا الترف الزائد والنعيم المفرط حظ عدد قليل من أفراد المجتمع وهم الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من الأدباء والشعراء وبعض التجار. أما السواد الأعظم، فقد كان يعيش عيشة ضنكاً، ونشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة: ترف لا حد له

---

(1) انظر: نفح الطيب، جـ1، ص 250 ـ 251، وفيات الأعيان، جـ1، ص 230، ويتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، جـ1، ص 19 ـ 20. تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة. الطبعة الأولى 1403هـ 1983م. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

في بيوت الخواصٍ من ذوي المناصب والسلطان، وفقر لاحد له في عامة الشعب، مما أدى إلى تفكك المجتمع وانقسامه على نفسه بسبب تلك الأمراض الاجتماعية الناتجة عن الترف اللامحدود بين طبقة قليلة فيه: من تفنن في الملذات والاستهتار والنعومة وفساد النفس... والتي تنشأ عن الفقر كالحقد والكراهية والحسد...

وكانت الأحوال المالية مضطربة أشد الاضطراب، فإلى جانب سوء التوزيع للثروة، تبدو ظاهرة عدم احترام الملكية الخاصة بسبب شهوة بعض الحكام وطمعهم فيما في أيدي الناس، فكثرت المصادرات، خاصة في عصر «البويهيين» فقد أصاب الناس في العراق ذعر شديد بسبب حاجة هؤلاء الأمراء المستمرة إلى المال للإنفاق على الجند المسخرين لخدمة مصالحهم الشخصية.

والمصادرات وإن وجدت قبل هذا التاريخ، إلا أنها في ظل حكم «بني بويه» صارت مورداً أساسياً يلجأونَ إليه عندما تقل الأموال في أيديهم. وقد ذكر «ابن الجوزي»[1] أن «بهاء الدولة» جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من «بني بويه» ولكنه كان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات.

على أن الخلاف المذهبي كان له أكبر الأثر في زعزعة الاستقرار الاجتماعي في تلك الحقبة من الزمن «فالبويهيون» الذين اعتنقوا الإسلام على مذهب الشيعة «الزيدية» نموا هذا المذهب في «بغداد» وأوجدوا له ـ بقوة السلطان ـ أنصاراً. ففي سنة 352هـ أمر «معز الدولة» ـ عاشر المحرم ـ التجار أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن تظهر النياحة... وأن تخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهنً، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على مقتل «الحسين بن علي» رضي الله عنه ـ ولم يكن لأهل السنة قدرة على المنع لكثرة الشيعة، وتأييد السلطان لهم. وبهذا الانقسام صارت «بغداد» و«بلاد فارس» ميداناً للاضطرابات المتكررة[2].

---

(1) المنتظم، ص 159، نقلاً عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ 1، ص 37، مرجع سابق.

(2) الشيخ محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص 382، مرجع سابق.

أما «بخارى» وبلاد ما وراء النهر ـ وهي البيئة التي عاش فيها «الحليمي» ـ فقد كانت الحياة الاجتماعية فيها على العكس من «بغداد» وغيرها من البلاد التي ابتليت بحكم «البويهيين» فقد نعمت تلك البلاد في ظل «السامانيين» بهدوء واستقرار اجتماعي بفضل ما كان عليه حكام تلك البلاد من سيرة طيبة، وعقيدة سليمة، وعدل اجتماعي، وحسن إدارة. ويعد أمراؤها بحق أصحاب حكومة قامت على التقاليد الدينية والاجتماعية النابعة من تعاليم الإسلام الحقة وفق منهج أقرب إلى ما كان عليه السلف الصالح في عصر الإسلام الذهبي. ولا تزال حكومتهم موضع تقدير الجميع إلى اليوم. فحين صارت «بغداد» ـ حاضرة الخلافة ـ ومدن آسيا الغربية مسرحاً لنشاط المذاهب والفلاسفة على اختلاف مللهم ونحلهم، كانت «بخارى» و«بلخ» و«سمرقند» تحت حكم «السامانيين» هي الملاذ الأثير عند علماء المسلمين الحريصين على الاستمساك بأدق دقائق الشرع والسنة. وبهذا ازدهرت العلوم الدينية في كل آسيا، وأصبحت «بخارى» تسعى إلى أن تعيد تلك الصورة الرائعة التي عرفتها «مكة» و«المدينة» في عصر الخلفاء الراشدين، فكانت لها السيادة السياسية على مختلف قبائل آسيا الوسطى. وتعظيم «سبكتكين» لـ «بخارى» والذي سار عليه ـ في العصور المتأخرة ـ الأفغان والهنود والأوزبك إنما بدأ أيام مجد «السامانيين»[1].

(1) انظر: تاريخ بخارى. تأليف: أرمنيوس فاميري، ترجمة الدكتور / أحمد محمد الساداتي. ص 73 ـ 110. مطابع: شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، 1965م المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.